"الدينُ" نسقٌ ثقافيٌ عندَ ابن بسّام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) في كتابهِ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

أ .م. د . عبد الكريم فاضل العاني طالبة الماجستير سَدير ناظم محمد العاني
جامعة الأنبار – كلية التربية للعلوم الانسانية
alanisadeer@gmail.com

المستخلص :

يهدف البحث من خلال استقراء النصوص التي اختارها ابن بسام الشنتريني في كتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" الى التوصل الى الوازع الديني لدى ابن بسّام بوصفه نسقا ثقافيا لديه ، ويمكن التوصل اليه من خلال عدد من المؤشرات والتحولات من نص لآخر ، ومن خلال طبيعة ابن بسّام في نقده النصوص ونبذه السلوك الظالم والسلوك المشين والسلوك الجبان ، اضافة الى موقفه من الهجاء ، وذكره الرسائل والفصول التي جاءت في التحميدات اضافة الى هذه الرسائل ، فقد تضمنت رسائل أخرى نوعا من الشوق والوجد الديني ، وهو التشوق الى زيارة الأماكن الدينية المقدسة ونصوص أخرى تتجلى فيها الاعتراف بقدرة الله عز وجل والدعوة الى الزهد ، والرضا بالقضاء والقدر .

ومما تجدر الاشارة اليه ان النصوص التي اوردها ابن بسّام وتعليقاته ووقفاته في مواطن كثيرة توحي بمعالم النسق الديني عنده ويتضمن النسق الديني توجيه سلوك الأفراد ، وأنساق القيم عند ابن بسّام ، وتقتصر الدراسة الأدبية في هذا البحث

على توجيه سلوك الأفراد كون هذا التوجيه هو الذي يوصل القارئ الى مفهوم النسق الديني عند ابن بسّام .

الكلمات الرئيسية : النسق الثقافي ، الدين ، توجيه السلوك ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، ابن بسَام الشنتريني .

Abstract

This paper reads the texts used by Ibn Bassam Al-Shantarini in his book The Stored Stuff in the Goodness of Arabia People in order to uncover the religious foundation of his criticism as when he detests behaviors in readings the texts he selected for study. Some of his letters shows more than once his longing to visit holy places and his deep religious belief. The ultimate aspect of the use of religion as cultural pattern manifests itself in the shaping of the individual's behavior and this is the core of Ibn Bassam's literary research.

Keywords: cultural Pattern, Behavior shaping, The Stored Stuff in the goodness of Arabia People, Ibn bassam Al-Shantarini

تمهيد :

تعريف النسق لغة واصطلاحا :

النّسَقْ من (نَسَقَ) : نسقتُ الدُّرّ نَسْقاً ، من باب (قَتَلَ) ، نظمتهُ ، ونسقت الكلام نسقاً ، أي: عطفت بعضه على بعض ، والنسق ما جاء على نظام واحد ، ودرٌّ نسِق ، أي : منظوم ، والنسق أن يعطف الكلام على الكلام[1]

ونسقهُ : نظمهُ على السواء ، وانتسقَ وتناسقَ ، والإسمُ (نَسَقْ) ، ونسقُ الأسنان انتظامها في النبتة وحسن تركيبها [٢] ومن المجاز : كلامٌ متناسقٌ ، وقد تناسقَ كلامهُ، وجاء على نسقٍ ونظام ، وثغرٌ نسِقْ ، وقامَ القومُ نسقاً ، ويقال لكوكب الجوزاء (النسق)[٣]،وقد انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي تنسقت. والنحويون يسمون حروف العطف حروف النسق لأن الشيء إذا عطفت عليه شيئا بعده جرى مجرى واحدا. وروي عن عمر – رضي الله عنه – أنه قال: ناسقوا بين الحج والعمرة، قال شمر: معنى ناسقوا تابعوا وواتروا. يقال: ناسق بين الأمرين أي تابع بينهما [٤].

المعنى الاصطلاحي :

النسق هو مجموعة من الأجزاء تكون متماسكة ارتباطا ، ومتكاملة حركيا ، ومتكافئة وظيفيا ، ومتناغمة ايقاعيا [٥] والنسق علاقات تستمر وتتحول بمعزل عن الأشياء لتي ترتبط بها ، ويعمل على بلورة منطق التفكير الأدبي في النص ، كما يحدد الأبعاد التي تعتمدها الرؤية [٦] وتدل كلمة النسق (**système**) في المعاجم الأجنبية الحديثة والمعاصرة على مجموعة من العلامات اللسانية والأدبية والثقافية، أو على مجموعة من العناصر والبنيات التي تتفاعل فيما بينها، وفق مجموعة من المبادىء والقواعد والمعايير، ويتحدد النسق أيضا بواسطة مكوناته وعناصره وبنياته التي يتضمنها؛ من خلال مختلف التفاعلات التي تقيمها العناصر فيما بينها؛ وعبر الحدود التي تفصل بين العنصر الذي ينتمي إلى النسق الداخلي ، أو الذي ينتمي إلى محيطه الخارجي؛ مع تبيان آليات التفاعل التي تتحكم في النسق في ارتباطه الوثيق بمحيطه السياقي المجتمعي والثقافي [٧]

توطئة:

منذ أن صدر كتاب النقد الثقافي للدكتور عبد الله الغذامي عام ٢٠٠٠ ، بدأ التطبيق والتنظير لهذا الاتجاه الجديد من النقد من أجل قراءة مختلفة للنص ، تختلف عمّا هو مألوف سابقا ، فبدأ النقد الثقافي يتّجه نحو التأويل ، والقاء الضوء على ما وراء النص؛ لاكتشاف ما يخفيه من أنساق مضمرة ، فهو لا يهتم بشكليات وجماليات النص ، انّما يسعى الى اكتشاف الحقائق التي تختفي وراءه ، وفي الوقت ذاته تفرض هذه الحقائق هيمنتها على النص ، وتتحكّم به ، ويمكن التوصّل اليها من خلال اشارات وتحولات ترتبط ارتباطا وثيقا بما يحيط بالنص ، فيكون النص في مفهوم النقد الثقافي مرتبطا بعلاقات انتاجه التاريخية والاجتماعية والثقافية .

ويتطلب تطبيق معايير دراسة النسق الديني عند ابن بسّام الشنتريني في كتابه "الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة" احاطة بمجريات الأحداث التي عاشها الشنتريني في القرن الخامس الهجري ، اضافة الى الأحوال السياسية والاجتماعية والعلمية والفكرية في عصره الذي شهد كثيرا من التقلبات ، ما جعلها تنعكس على محتوى كتابه ، فالذخيرة عرف بمحتواه الادبي الغزير واسماء أعلام الأندلس في القرن الخامس الهجري والترجمة لهم .

النسق الديني – توجيه سلوك الأفراد – :

من خلال طبيعة النصوص التي اقتبسها ابن بسام من كلام الشعراء والكتّاب الذين اورد أخبارهم ونتاجهم الأدبي في كتابه، يمكن ان تتضح معالم النزعة الدينية في نفس ابن بسام، وكيف أنه كان مؤمنا بقدرة الله –عزّ وجل– على تسخير كل ما في الكون بمشيئته وارادته .

يذكر من فصل مما كتبه ابو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي(ت٤٤٥ه)[٨] يصف حال أحد البلاد التي مرّ بها ، وكيف أن اصحابها جحدوا النعمة ، فأراهم الله عجائب قدرته ، يقول: "ضعف حبل الديانة فيهم والإيمان، فجنحوا إلى جحود النعم والكفران، وتوسعوا في مطاوعة الظلم والعدوان، فأبدلهم الله من النور في أحوالهم ظلاما، وبالحلال في مكاسبهم حراما"[٩]

ثم يقول : "وخص أسعارهم بالغلاء، وجمعهم بالفناء، ولفيهم بالتشتت والجلاء، وللخراب ما يعمرون، وللقتل ما يلدون، وللنهب ما يجمعون، ولغيرهم ما يكسبون ، "وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" (الزمر: ٤٨) ، "وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ " (هود: ١٠٢)"[١٠]

ومن ذلك ايضا ما قاله ابن بسام في ما آل اليه قصر المأمون: " فتبارك من أحاط بالأشياء، ولم يخف عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب بنيانه، الهادم -كان- للدين والدنيا شانه، مربطاً للأفراس، وملعباً للأعلاج الأرجاس"[١١]

فعندما سقطت بطليوس بيد النصارى كان المأمون منشغلا بتشييد بنيان قصره، ولم يلتفت الى ما آلت اليه بطليوس (بلاد المظفر بن الافطس) من خراب على يد الطاغية أذفونش، فبقوله هذا يؤمن بسوء عاقبة المأمون لما ابداه من جهل تجاه حروب بطليوس، وان كل نعيم مصيره الزوال، وان الحال قد ينقلب الى ضده بأمر من الله عز وجل الذي لا تخفى عليه خافية ، والمأمون لم يعمل بما يرض الله، فكان حري به أن يمدّ يد العون لبلاد المسلمين عندما فتك بهم اذفونش النصراني، فيرى ابن بسام ان رضا الله أساس لكل عمل، يذكر فصولا لأبي حفص بن برد الأصغر

منها قوله: "إن أفضل ما تناجي المسلمون به، ووجهوا بصائرهم إليه، وصححوا نياتهم فيه، ولم يلوهم لاو عنه، ولا لفتهم لافت دونه، ما قرب من رضى الله، وأبعد من سخطه، وعمل فيه بأمره، واحستب فيه خلافة رسوله في أمته، من الإصلاح بين المتحاربين وتحذيرهم في سفك الدماء، وتأريث نار الشحناء، وتوكيد غرر الحقود، وإيقاظ عيون الحروب، من فساد الدين، ووهن اليقين، وذهاب الرجال، ونفاذ الأموال، واجتياح النعم، واستنزال النقم "[١٢]

اراد ابن بسام ان يؤكد على وجوب الاعتماد على الله وحده والتوجّه إليه وحده والخوف منه وعدم الخوف من أيِّ مخلوق مهما كان وضعه.

ويؤمن ابن بسّام بوحدانية الله وتفرده بأحقية العبادة ، وكل ما في الكون يشهد على ذلك ، يذكر لأحد الحكماء قوله: "أشهد أن في السموات والأرض آيات ودلالات، وشواهد قائمات، كل تؤدي عنه الحجة، وتشهد له بالربوبية"[١٣].

وجلس أبو العتاهية بحانوت وراق فأخذ كتاباً وكتب على ظهره:

أيا عجباً كيفَ يُعْصى الإلــــهُ ... أمْ كيفَ يجحدهُ جاحــدُ

وفـــــي كــل شـــيء له آية ... تَـدُلُّ على أنَّــهُ واحِــدُ[١٤]

فلما انصرف اجتاز بالموضع أبو نواس فقال: لمن هذه – لودتها لي بجميع شعري، قيل له: لأبي العتاهية: فكتب تحتها:

سبحانَ من خلقَ الخلـ ... ـق من ضعيفٍ مَهيـــــــنِ

فَصَاغَـــهُ في قَـــــرار ... إلـــــى قـــــرارٍ مَكِـيـــنِ

يَجُولُ شَيئاً فَشَيْئـــــــاً ... في الحجب دون العُيُـــونِ

حتى بَدَتْ حَرَكَـــاتٌ ... مَخْلُوقَـــــةٌ مِـنْ سُكُـــونِ[١٥]

في هذه الأبيات يتفكّر في قدرة الخالق وابداعه فيما خلق ، بدأ خلقه من مكان مستقر الى قرار آخر في بطن أمه ، ينمو شيئا فشيئا حتى تحوّل من الاستقرار والسكون الى الحركة والنشاط ،أصبح كائنا حيّا قادرا على العيش ، وهذا التفكر يؤكّد وجود الإيمان في ذات الشاعر، وذات ابن بسّام ايضا، يؤمن بأن الله هو القادر على تحويل الأشياء من الضعف والسكون الى الحركة والقوة .

وقد نبذ ابن بسام الحروب والخلافات لما فيها من ابادة جماعية ، وتطهير عرقي في اغلب الاحيان ، وفي ذلك العصر أدت الحروب الى القتل والتشريد والأذية للمسلمين، أراد ابن بسام حقن الدماء وصيانة الحرم، يذكر فصلا من قول ابن برد الأصغر أيضا: "إن الحرب مثكلة للنفوس، متلفة للأموال، للندامة في العواقب، تلذ مباديها للأشرار، وتنجي كلاكل عاقبتها على الأخيار، وقلما يقدح شعلها، ويغلي مرجلها، إلا فراش الشر وذبان الطمع، ممن لا يحفل بعار، ولا يستحيي من فرار، فإن هلك لم يفقد، وإن نجا لم يحمد"[١٦]، ومن خلال ذلك يتبين ان ابن بسام نبذ السلوك المشين، الحرب والاقتتال وعدم اتحاد المسلمين تحت راية واحدة ، يبقى الشتات والتفريق بينهم ، وتبقى البلاد في حال يرثى لها حتى تضع الحرب أوزارها .

ومن السلوك المشين الذي يرفضه الاسلام (الحسد) ، وهو تمني زوال النعمة، قال تعالى: "وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم "[١٧]، وقد نبذه ابن بسام ، يذكر عن علي بن حمود الذي وصفه بـ(تلقاعة)[١٨]، الذي كان شديد الاصابة بعينه، لا يكاد يفتح عينيه على شيء يستحسنه إلا أسرعت الآفة إليه [١٩].

وقد كان الدين سببا في أن ينال العلماء والفقهاء الحظوة عند الأمراء والملوك ، كما نالوا الجاه والثروة التي تعددت مصادرها فهي إما من الهبات التي يغدقها عليهم ولاة الأمر ، أو من الثروات العقارية التي اكتسبوها من الأمراء، وعلى الرغم من دورهم في الكبير في ذلك العصر الا انهم لم يتخذوا موقفا محايدا امام قضايا عصرهم الكبرى ، وعلى رأسها انقسام الاندلس الى دول طائفية ، وفساد عدد من ملوك الطوائف ومؤيديهم ، والضرائب الثقيلة غير الشرعية[٢٠]، يقول ابن حيان يصف حال الخراج ابان حكم مظفر ومبارك العامريان: "فأقبلت الدنيا يومئذ عليهما وعلى نظرائهما بكثرة الخراج، وتبوؤوا البحبوحة بحيث لا يغادرون عدوا، ولا تطرقهم نائبة تضمهم لها نفقة حادثة"[٢١]

وعندما يذكر ابن بسّام كثرة الخراج ، وكيفَ أصبح مظفر ومبارك في بحبوحة من العيش، يريد بذلك أن يبين موقف بعض الفقهاء من كمية الخراج الذي اثقل كاهل العامة، وينتقد سكوتهم عن ذلك خشية على منزلتهم لدى الحكّام .

أما السلوك الظالم والسلوك الجبان ، فقد انتقدهما ابن بسام ايضا ، ووقف تجاههما موقفا ضدا ، يذكر نصا لابن حيان ، يتحدث فيه عن الملوك وجورهم ، وكيف أحس الناس بالخلاص والنجاة بعد مهلك زاوي بن زيري ، يقول: "مهلكه كان – زعموا – من طاعونة أصابته، فالحمد لله المنفرد بإهلاكه، الكفيل بقصاصه؛ فلقد كان في الظلم والجور، والاستحلال للمحارم والقسوة، آية من آيات الله؛ أهان الله مثواه، ولا قدس صداه"[٢٢]

ويذكر لآخر، عندما خاطب أهالي قرطبة، وصفَ الملوك بـ(العصابة)، وان أشد هذه العصابة ابن عباد: "الذي سل سيف الفتنة والبغي، من قرابه، وأثار بعير

الظلم من مبركه، وانتزى ببطنته أشراً، ومشى في الأرض مرحاً، وظن أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولاً"[٢٣]

ومن ذلك ما ذكره لأحد الوزراء يخاطب الملك، يقول من رقعة: "أنف الكبر أجدع راغم، ووجه الظلم أسفع قاتم"[٢٤].

أن هذه الرسالة تحمل تهنئة للملك لحصوله على كرسي الحكم ، لكنها توجه تحذيرا اليه ، لم يفصح عنه الكاتب خشية ورهبة من جبروت الحاكم ، وهو القصد ذاته الذي انغرس في نفس ابن بسام تجاه الحاكم الجديد .

اضافة الى ذلك ؛ فقد انتقد ابن بسام السلوك الجبان ، من ذلك ما ذكره عن ابن هود وابنه الذي جعل له منصبا في الحكم ، وأسماه (معز الدولة) ، ولم يكن أهلا لهذا المنصب ، فنعته ابن بسام بالجاهل الجبان ، لما في كلامه من سذاجة في التفكير ، وشحة في الرأي، وأنه ابله ، لا يعي ما يقوله ابن هود ، ولا يعي ما يجيبه به[٢٥]

ولقد عدّ ابن بسام استعانة ملوك الطوائف بملوك النصارى موقفا جبانا، ودواعي هذه الاستعانة هي نتيجة الحروب الداخلية والاقتتال والصراع على الحكم ، ولأجل زيادة الأعداد الخاضعة لهم ، يوجه ابن بسام اليهم نقدا لاذعا كون هؤلاء الحكّام غير قادرين على التوحد ضد أعداء الإسلام على الرغم من أن هنالك دينا واحدا يجمعهم ، وأرضا واحدة يعيشون عليها سوية ، يحكمون أهلها ، ومسؤولون عن ريعتهم فيها، يذكر رسائل كتبت الى أصحاب السلطة باسلوب نقيض للملاطفة والترغيب، امتازت بانتقاد السياسة الخاطئة ، من ذلك ما كتبه البزلياني (ت ٤٤٠هـ)[٢٦] الى ابن المنذر: "واتصل بي ما وقع بينك وبين المؤتمن وأبي المنذر والموفق وعضد الدولة أبي الحسن، وأنكم اضطررتم إلى إخراج كل فريق منكم

النصارى إلى بلاد المسلمين، فنظرت في الأمر بعين التحصيل، وتأولته بحقيقة التأويل؛ فعظم قلقي، وكثر على المسلمين شفقي، في أن يطأ أعداؤهم بلادهم، ويوتموا أولادهم، ويتسع الخرق على الراقع، وينقطع طمع التلاقي على الطامع"[٢٧]

ثم يقول: " فإذا تأيدنا بالمشركين، واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حرمتنا، ومنحناهم قوتنا، وقتلنا أنفسنا بأيدينا، وأدتنا إلى الندم مساعينا، كانت الدائرة أمض، والحيرة أرمض، والفتنة أشد، والمحنة أهد، والأعمال أحبط، والأحوال أسقط، والأوزار أثقل، والمضمار أشمل. والله يعيذنا من البوائق، ويسلك بنا أجمل الطرائق"[٢٨]

ومما كتبه البزلياني أيضا الى صاحبي شاطبة ، يقول فيها : "فقد بلغني أن مذهبكم الاستجاشة بالنصارى إلى بلاد المسلمين، يطؤون ديارهم، ويعفون آثارهم، ويجتاحون أموالهم، ويسفكون دماءهم، ويستعبدون أبناءهم ..."[٢٩]

تتجلى في هذه الرسالة النقمة الشديدة على ممارسة هؤلاء الحكّام المنصرفين عن مصالح الأمة ، اذا ان ذلك ينذر بانهيار الوجود الاسلامي ، يقول : "فهي حال مؤذنة بالذهاب، وجريرة تؤذن بالخراب؛ ولم نأمن أن يظهر لهم من الخلل في بلادنا، والقلة في أعدادنا، ما يجرئهم علينا، ويجرهم إلينا، بما لا نقدر على مكاثرتهم فيه، ولا نقوى على مصابرتهم به"[٣٠]

وهذه المواقف تدعم القول بأن ملوك الطوائف كانوا أسوأ قدوة ، كانوا ضعافاً في وطنيتهم ودينهم، غلبت عليهم الأهواء الشخصية وحب الدنيا وزينتها إلى أبعد الحدود، ونسوا في غمارها ما عليهم من أمانة ومسؤولية أمام الناس ، بل نسوا

حتى اعتبارات الكرامة الشخصية، واستساغوا لأنفسهم تسليم أمرهم للملوك النصارى ، والتنازل عن أراضي المسلمين لا من أجل صالح الشعب الأندلسي ، ولكن لاقتطاع بلدة أو حصن من مملكة شقيقة ، أو التنكيل بأحد الأمراء المجاورين ، وقد آل مصيرهم الى درك أسفل يستحق أن يوصف بأنه الأسوأ[٣١] ، مثال ذلك موقف ملوك الطوائف إزاء نكبة طليطلة ، وتخاذلهم جميعاً عن انقاذها حين حاصرها ملك قشتالة وصمم على أخذها ، وهم جميعاً – إلا واحداً منهم هو أمير بطليوس (ت ٤٨٩هـ)[٣٢] – ينظرون إلى دمار المدينة ، ويسعون الى ارضاء ملك قشتالة ، اضافة الى السعي الى سلامة أنفسهم وحفاظهم على السلطة ، فقد كان ملك قشتالة يعاملهم معاملة الأتباع ، ويسلب منهم الأموال باسم الجزية، ويعامل رسلهم وسفراءهم معاملة الخدم ، ويكفي أن نتلو في ذلك ما سطره ابن بسام في الذخيرة، من وصف مثول سفراء ملوك الطوائف لدى ملك قشتالة، وقت نزوله أمام طليطلة، وهي على وشك التسليم إليه، وما كان يتسم به موقفهم من المذلة والخنوع، وفقد كل كرامة قومية[٣٣]، ويذكر ابن بسام قول أحد الشعراء في ملوك الطوائف :

حُثُّوا مَطَاياكُمْ عن أَرْضِ أَنْدُلُسٍ ... فَمَا المَقَامُ بِهَا إلا مِن الغَلَطِ
فَالثّوبُ يَنْسِلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى ... ثَوْبَ الجَزِيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الوَسَطِ[٣٤]

وللسميسر فيهم ايضا ازاء هذا التخاذل :

نادِ المُلُوكَ وَقُلْ لَهُمْ ... ماذا الذي أَحْدَثْتُمُ
أَسْلَمْتُمُ الإسْلَامَ في ... أَسْرِ العِدَا وَقَعَدْتُمُ

وَجَبَ القِيَـامُ عَلَيْكُـــمُ ... إِذْ بِالنَّصَارَى قُمْتُمُ
لا تَنْكُرُوا شَقّ العَصَا ... فَعَصَا النَّبِيِّ شَقَقْتُـمُ[٣٥]

ومما يلاحظ في كتاب الذخيرة ان ابن بسام يورد ابياتا عدة لشعراء الاندلس في وصف السيف[٣٦]، رغم ان السيف يبقى جمادا مسخّرا ، ولكن عمد الى رواية ابيات في صفته ترغيبا لحمله بأيدٍ شجاعة والدفاع عن بلادهم من فتك النصارى بهم ، يذكر من رقعة لعبد البر النمري كتبها الى المنصور بن ابي عامر :

إِذَا كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ السَّيْفِ فَابْلِهِ ... فَإِمَّا تَنْفِيهِ وَإِمَّـــــــا تُعِدُّهُ
وَمَا الصّارِمُ الهِنْـــــدِيُّ إِلّا كَغَيْرِهِ ... إِذَا لَمْ يُفَارِقْهُ النّجَادَ وَغِمْدُهُ[٣٧]

فالسيف لا يشفي من الثار ولا ينفي من العار من تلقاء نفسه ، الا ان فارق غمده.

ولم يرض ابن بسام عن بعض الشعراء عندما اتجهوا نحو الغلو في القول، خصوصا فيما يمس الأنبياء والمرسلين، ويتجرأ على أهل الدين ، يقول في قصيدة للمنفتل[٣٨]:

قصيدة من الغلو في القول، ما نبرأ منه إلى ذي القوة والحول، وهو قوله:

أَدِينُ بِدَيْنِ السّبْتِ جَهْراً لَدَيْكُمُ ... وإِنْ كُنْتُ فِي قَومِي أَدِينُ بِهِ سِرّا
وَقَدْ كَانَ مُوسَى خَائِفَاً مُتَرَقِّبَـاً ... فَقِيـــرَاً وَأَمِنْـتَ المَخَافَـةَ وَالفَقْـرَا[٣٩]

قال ابن بسام: "فقبح الله هذا مكسباً، وأبعد من مذهبه مذهباً، تعلق به سببا؛ فما أدري من أي شؤون هذا المدل بذنبه، المجترئ على ربه، أعجب: التفضيل هذا اليهودي المأفون، على الأنبياء والمرسلين، أم خلعه إليه الدنيا والدين – حشره الله تحت لوائه، ولا أدخله الجنة إلا بفضل اعتنائه"[٤٠] ، كما ذكر للمنفتل قبل ذلك ابياتا اخرى من الغلو في القول وذكر أن هذا النوع من الكلام مما لا يثبته في كتابه ولا يرويه ، ولكنه قد عمد الى ذكر هذه القصيدة لتأنيب قائلها لما أثارته في نفسه

من غضب لما قاله المنفتل في يهودي، فضله على موسى -عليه السلام- وهذا من الجرأة في القول والتطاول على الأنبياء .

ومما ابتعد عنه ابن بسام في الرواية والاثبات ، ما كتبه الشعراء في الهجاء، ولعلّ سبب عدم روايته لأبيات الهجاء لأنه يمس كرامة الغير ويخدش أحاسيسهم ، خاصة ذلك الهجاء الصادر من المشركين ضد الإسلام والمسلمين لما فيه من مس بأعراض المسلمين و ضرر بالعقيدة الإسلامية ، ومن المعلوم ان هنالك للشعر في نفوس العرب منزلة سامية ومكانة مرموقة؛ لأنّه ديوان مآثرهم وسجلّ مفاخرهم، فكان يلعب دوراً خطيراً في إيقاد نار الحروب بينهم ، وفي إخمادها في الوقت ذاته، اضافة الى ذلك فإن الرسول ﷺ ذمّ الهجاء، فتحرّج ابن بسّام من ذكر أبيات فيه، عن ابن عائشة التيمي قال: قال رسول الله ﷺ " : (اللهم من هجاني فالعنه مكان كل هجاءٍ هجانيه لعنةً" [٤١]

وعندما ذكر ابياتا في الهجاء لابن صارة الشنتريني ، علل سبب ذكره لها ، والسبب ان ابن صارة لم يصرّح باسم المهجو ، وأكد مرة اخرى ابن بسام أنه نزّه كتابه عن ذكر الهجاء يقول: "وقد قلت في غير موضع من كتابي هذا إني نزهته عن الهجاء، ولم أجعله ميداناً للسفهاء" [٤٢] .

فابن بسام في الذخيرة ذكر موقفه من الهجاء مسبقا وتحدث عن أقسامه وفصّل القول في ذلك ، يقول: "ولما صنت كتابي هذا عن شين الهجاء، وأكبرته أن يكون ميداناً للسفهاء، أجريت هاهنا طرفاً من مليح التعريض في إيجاز القريض، مما لا أدب على قائليه، ولا وصمة أعظم على من قيل فيه"[٤٣]

ثم ذكر ان الهجاء ينقسم الى قسمين: قسم يسمونه هجو الأشراف، وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابا مقذعاً ولا هجواً مستبشعاً، وان بداية ظهوره كانت لدى القدماء بين القبائل، وهو توبيخ وتعيير، وتقديم وتأخير، ومثاله قول عبد الملك بن مروان يوماً: احفظوا أحسابكم يا بني أمية، فما أود أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس وأن الأعشى قال فيّ:

تَبِيتُونَ فِي المَشْتَى مِلاءً بطونِكُمْ ... وَجَارَاتِكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا[٤٤]

ولما سمع علقمة بن علاثة هذا البيت بكى وقال: أنحن نفعل هذا بجاراتنا !! ودعا عليه؛ فما ظنك بشيء يبكي علقمة بن علاثة، وقد كان عندهم لو ضرب بالسيف ما قال حس!![٤٥].

أما القسم الثاني هو "السباب" وذكر أن من كتب في هذا القسم جرير وطبقته، وكان يقول: إذا هجوت فأضحكوا، ويقول ابن بسّام في هذا النوع من الهجاء: "وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتاً، ولا عيرت به قبيلة، وهو الذي صنا هذا المجموع عنه، وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه، فإن أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه وسمه، وبقي عليه إثمه"[٤٦] ، وعلى الرغم من ان ابن بسّام ابتعد عن ذكر الهجاء المقذع والسباب لما في نفسه من تمسك بأخلاق الدين وتعاليمه ؛ لكن لديه النزعة الدفاعية لأهل الأندلس بدت واضحة هنا أيضا ، فقد خصّ شعراء الاندلس بالنوع الأول، ذكر منه ما كتبه هؤلاء بقوله: (ومن مليح التعريض لأهل أفقنا) ، وصفه بالمليح والمستحسن ، وبالمقابل يرى ان ما كتبه أهل المشرق –جرير وطبقته– في باب المستقبح والسباب ، وهذا الحكم ليس بالمنصف ، ففي الأندلس نجد أن كمية الهجاء لم تكن مثل كميته في المشرق ولكن الشعر الأندلسي لو وصل

الينا كاملا لوصل الينا من الهجاء كثير، اذ ان الشعراء كانوا مستائين من فعل الحكّام ومواقفهم ، لا سيما الشعراء الذين وقفوا بوجه الظلم والاستبداد ، فقد هجا أولئك الشعراء الحكّام الذين وقفوا مع النصارى ، وتحاموا بهم ضد نظرائهم من الحكّام ، دون ان يمنعهم وازع ديني أو وطني، وقد يلقى الشاعر حتفه بسبب هجاءه ، وبالتالي كان الخوف يمنعهم من التصريح بشعر الهجاء ، فلم ينتشر ويذاع بين الناس بكثرة .

ومن صور الملامح الدينية الأخرى ، استخدام الكتّاب التحميدات في فصول الرسائل ، ذكر منها ابن بسام الكثير مما كتبه أدباء عصره، وهي من الملامح الفنية التي طرأت على هذا العصر ، ويزاد بالتحميدات اظهار الثناء والحمد لله عز وجل على آلائه ونعمه ، وتمجيد الذات الالهية وتنزيهها ، ولم ينته الى الأدب من هذه الرسائل الا ما ذكره ابن بسام في الذخيرة [٤٧]، منها ما ذكره لابن برد الاصغر تحت عنوان "فصول له في التحميدات" ، ذكر قوله من فصل: "الحمد لله الذي علا وقهر، وبطن وظهر، وبحكمته قدر وأمر، وبعدله قدم وأخر"[٤٨].

وفصل آخر: "الحمد لله الذي علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان، المحجوب عن الأبصار، والفائت إحاطة الأفكار، تعالى في الحجب العلا، واطلع على النجوى، وعلم السر وأخفى، خلق الخلق للفناء، ثم يعيدها للبقاء"[٤٩].

ويستمر ابن بسام بإيراد فصول أخرى لإبن برد في التحميدات ، ومن خلال اختيارات ابن بسّام لهذه النصوص نجد أنه قدّر نعمة الخالق على خلقه ، وفي معانيها اعتراف بقدرته المطلقة على تصريف شؤون الكون المختلفة ، ومن سمات هذه القدرة اجلاء الكروب وتفريج الهموم والمصائب ، واقالة العثرات ، وابدال

النعم بعد النقم ، والراحة بعد الجهد[٥٠] ، يقول ابن برد: "الحمد لله جالي الكرب السود، وفاتح المبهم المسدود، الذي أقال العشرات، وأدال من الحسرات، وانتاش متن البأساء وأعقب بالنعماء، وأراح من جهد البلاء"[٥١]

كما تكشف هذه الرسائل جانبا من جوانب قدرة الله -عز وجل- ، فهو جامع الشمل بعد تفرقه ، وموحد الصف بعد تشتته ، ومانح القوة والوحدة ، بعد الضعف والفرقة ، يقول ابن برد: "الحمد لله واصل الحبل بعد انقطاعه، وملائم الشمل بعد انصداعه، المصبح بنا من ليالي الخطوب، والماحي عنا غياهب الكروب، والناظم لما انتثر من الألفة، والجامع لما انتشر من الكلمة"[٥٢].

وذكر لابن برد رسائل أخرى في شكر الله على نعمه ، سمّاها (فصول في شكر النِّعَم) ، منها قوله في فصل: "إن للنعم عيوناً إذا كحلن بالشكر أرين المنعم عليه السبيل التي يأتي المزيد منها، وتنحدر المواد عليها، والمناهج التي تفضي بها إلى دار إقامتها، وتبليغها مأمنها وملقى عصاها"[٥٣]

وفي فصل: "أما بعد، فإن زهر النعمة إذا تفتح بوابل الشكر رأت فيه قرتها العين، وأخذت منه حاجتها النفس"[٥٤] ، وقوله: "إذا أقفل باب النعمة فالشكر مفتاحها"[٥٥] وأخرى جميعها تدل على تقدير نعمة الله-عز وجل-والتأدب معه بشكره على منِّهِ وفضله.

ومما ذكره ابن بسام أيضا لأبي الوليد الباجي في معنى الحمد الشكر :

الحَمْـدُ لِلهِ ذِي الآلاءِ وَالنِّعَـــــمِ ... وَمُبْدِعِ السَّمْعِ وَالأَبْصَارِ وَالكَلِمِ

مَنْ يَحمدِ اللهَ يَأْتِيهِ المَزِيدُ وَمَنْ ... يَكْفُرْ فَكَمْ نِعَمٍ آلَـــــتْ إِلى نِقَـــمِ[٥٦]

فالمقصود بالنعم كل ما أعطاه الله –عز وجل– للإنسان من شيء ينفعه ، لا يقتصر ذلك على المأكل والمال ، وانما يشمل ذلك السمع والبصر والنطق وصحة الأبدان.. الخ ، وفي البيتين تشجيع وتحذير ، فالتشجيع هو تشجيع على شكر النعم لأن الشاكر له زيادة، والتحذير هو تحذير من زوال النعمة ، أوتحولها الى نقمة ، لعدم شكرها والاعتراف بفضل واهبها وهو الباري –عز وجل–.

وللباجي أيضا:

الحَمْدُ للهِ حَمْـدَ مُعْتَـرِفٍ ... بِأَنَّهُ نِعْمَاهُ لَيْسَ نُحْصِيهَـا

وَأَنّ مَا بِالعِبَادِ مِـنْ نِعِـمٍ ... فَإِنّ مَولَى الأَنَامِ مُولِيـهَا

وَإِنّ شُكْرِي لِبَعْضِ أَنْعُمِهِ ... مِنْ خَيْرِ مَا نِعْمَةٍ يُوالِيهَـا[٥٧]

وله أيضا في قيام الليل:

قَدْ أَفْلَحَ القَانِتُ فِي جنحِ الدُّجَـى ... يَتْلُو الكِتَابَ العَرَبِيَّ النّيّرَا

فَقَائِمَـاً وَرَاكِعَـاً وَسَاجِـدًا ... مُبْتَهِلاً مُسْتَعْبِرَاً مُسْتَغْفِـرَا

لَـهُ حَنِيْنٌ وَشَهِيـقٌ وَبُكَا ... يَبلُّ مِنْ أَدْمُعِهِ تُرْبَ الثّرَى[٥٨]

فالقيام من أعظمِ الطّاعات عند الله تعالى، وهو سرٌ من أسرار الطُمأنينة والرِّضا في قلب الإنسانِ المؤمن.

اضافة الى هذه الرسائل ، فقد تضمنت رسائل أخرى نوعا من الشوق والوجد الديني ، وهو التشوق الى زيارة الأماكن الدينية المقدسة ، وقد أشار المقري الى هذا النوع من الرسائل بقوله: "أقول هذا مقام طالما طمحت اليه همم الرجال ، وتسابقت جياد افكارهم في مضماره بالرويّة والارتجال ، وسارت ارواحهم مع

الرفاق ، وان قامت الأشباح ، وطارت قلوبهم بالأشواق ، ولمَ لا وهو سوق تعظم فيه الأرباح"[٥٩].

وهذا النوع من الرسائل يصوّر نفسية الكتّاب الذين لم تسعفهم الظروف لزيارة الأماكن المقدّسة[٦٠]، ولعلّ هذا الشعور انعكس عند ابن بسام ، فاختار منها فصولا وذكرها لما أثارته في نفسه من اشتياق ، وتكشف هذه الرسائل الحب والوجد العظيم بحب الرسول ﷺ، يذكر لابن الجد من رقعة أنشأها على لسان من صدر من بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه ﷺ ، يقول فيها: "صلوات الله على خاتم الرسل، وناهج السبل، وناسخ جميع الملل، ومجلي الظلم والظلم، ومحيي القلوب بنور الهدى والحكم، ومقلد النذارة والسفارة إلى كواف الأمم، وعليه من لطائف التسليم، ما يربى على عدد النجوم"[٦١]

ومنها: "كتبت يا أكرام الأنبياء وسائل، وأعظمهم فضائل، وأعمهم فواضل، وأتمهم فرائض ونوافل، وقلبي بحبك معمور ومأهول، وعلى الإيمان بك مفطور ومجبول، ويتمثل ما عاينته من عظيم آثارك مهول مشغول ، ومن لي بمقولٍ لا يتخلله خلل، ولا يدركه في الصلاة عليك والدعاء لك ملل"[٦٢] ، وكأنّه ينفّس عن نفسه المحرومة من زيارة قبر النبيﷺ ، ويحوّل رغبته المكبوتة الى رسالة ، ويأسف لارتحاله وبعده عن قبره ﷺ ويأمل العودة مرة أخرى ، يقول: "ولما صدرت يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأت هيبتك ومحبتك أرجاء فكري، وفضاء صدري، وغشيني من نور برهانك ما بهر لبي، وعمر قلبي، لحقني من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أودع جوانحي التهاباً، وأوسع جوارحي اضطراباً، وأشعر أملي عوداً إلى محلك المعظم وإياباً، وكيف لا أحن إلى قربك، وأتهالك في حبك،

وأعفر خدي في مقدس تربك، وبك اقتديت فاهتديت، ولولاك ما صمت ولا صليت، ولا سعيت ولا طفت، بل كيف لا يتحرك نحوك نزاعي، ويتأكد انقطاعي، وبك استشفاعي، واليك مفزعي يوم الداعي"[٦٣] ، ويختتم رسالته بمناجاة للرسول ﷺ تكشف عن عاطفة دينية صادقة ، ويطلب الشفاعة منه عندما يقف أمام الله –عز وجل– ، يقول: "فلا تنس لي يا رسول الله عياذي بك وليإذي، وإسراعي إلى زيارتك وإغذاذي، واذكرني في اليوم العظيم المشهور، عند حوضك المورود، وظلك الممدود، ومقامك المحمود"[٦٤]

ان هذا اللون من الرسائل يكشف عمّا في ذات ابن بسام ، والتدين الكامن في نفسه وفي نفوس الأندلسيين ، وتطلعهم الصادق الى تأدية فرض من جوانب العبادة لله –عز وجل–، وتشوقهم الى زيارة قبر النبي الكريم .

اضافة الى ذلك فإن الظروف الصعبة التي مرّت بها الأندلس من محن وفتن جعلت الكتّاب يتخذون من ذكر مناقب الرسول ﷺ وصفاته وسيلة لانتشال أنفسهم من الحال المزري الذي وصلوا اليه ، وطلب الشفاعة من الرسول ﷺ لكي ينجيهم الله –عز وجل– من المصائب التي حلّت بهم ، ويرد عنهم كيد الصليبيين[٦٥]

ومما يعزز هذا الرأي ما ذكره ابن بسام لأبي حفص من جملة قصيدة يأسف فيها على حال الدين ، وما آلت اليه بلاد المسلمين ، ويحذرهم العذاب والمصير الذي أصاب قوم ثمود، يقول:

أيا أسفاً للدين إذ ظل نهبـــــةً ... بأعيننا والمسلمون شهـــــودُ
أفي حرم الرحمن يلحد جهـرةً ... ويجعل أشراك الإله يهـــــودُ
ويثلب بيت الله بين بيوتكـــــمْ ... وقادره عن رد ذاك قـــعيـدُ

ويوضع للدجال بيت بمكـــــةٍ ... ويخفى عليكم منزع وقصودُ
أعيذك أن تدهنوا فيمسّكـــــــمْ ... عقاب كما ذاق العذاب ثمودُ[٦٦]

ومن الموضوعات الأخرى التي لها دور في استشعار النسق الديني لدى ابن بسّام ما ذكره من أبيات في الزهد ، والابتعاد عن زينة الدنيا ولهوها ، فقد شاع الزهد في الأندلس عند مختلف الطبقات الاجتماعية ، وهو صادر عن روح الاسلام في نفوسهم ، فالاسلام يحثهم على سلك طريق الرشاد ، والتمسك بتعاليم الدين ، والابتعاد عن كل نواهيه .

ولقد كان هذا الزهد ردة فعل لحياة اللهو والمجون التي شهدتها بيئة الأندلس في ذلك الوقت ، اضافة الى الاضطرابات السياسية والحروب الداخلية والخارجية التي تهدد الوجود الاسلامي في الأندلس[٦٧] ، وعندما ذكر ابن بسام أبياتا في الزهد والوعظ ، كانت محاولة منه لتذكير الناس بما آلت اليه حالهم ، وان الرجوع الى الله وترك الدنيا ولهوها والتمسك بالدين وتعاليمه ، هو السبيل الوحيد الذي ينتشلهم من ظلمات الحروب والفتن الى نور الأمان والعيش الرغيد .

وذكر ابن بسام وصف الدنيا ودنوها على لسان النبي ﷺعندما خاطب أبا هريرة: "وذكرت بهذا الفصل حديث أبي هريرة ، قال، قال لي رسول الله عليه السلام: (يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جمعاء بما فيها؟ - قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيدي، وأتى وادياً من أودية المدينة، فإذا مزبلة فيها رؤوس وعذرات في خرق وعظام، ثم قال: يا أبا هريرة، هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم، وتأمل آمالكم، ثم هي اليوم عظام بلا جلد، ثم هي صائرة رماداً، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها، ثم قذفوها من بطونهم، فأضحت والناس

يتحامونها، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم، أصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون على أطراف البلاد. فمن كان باكياً على الدنيا فليبك)، قال: "فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا"[٦٨]

ومن ذلك ما اورده في خبر الأديب أبي محمد غانم أنشد له أحد الفقهاء يقول:

صرِّفْ بقايا العمرِ في طاعـــةٍ ... ولا يغـــرّنّكَ كيدَ الغرورِ

وارْحَلْ إلى الأُخرى بزادِ التُّقَى ... فَإِنّمَا الدُّنْيَا مَتَاعُ الغُـرُورِ[٦٩]

ويذكر ابن بسّام رسالة لأحد الزهّاد[٧٠] من أهل سرقسطة يحث فيها على التزام طريق الهداية ، ويرسم صورة للزهاد المتعبدين ، ويبين فضلهم عند الله ، يقول: "أنار وجوههم بنور إخلاص سرائرهم، وكللهم بالمهابة في العيون، وطهر قلوبهم من اختلاج سوء الظنون، فنفوسهم مستريحة رائحة، ومحاسنهم لأهل العقول لائحة، وثناؤهم عطر الانتسام، فهم بين الأنام كالأعلام، بهم يستمطر الغمام إذا حجب، وفي جملتهم يحشر السعيد إذا نجب، فمن جاراهم نكب، ومن حاربهم غلب، ومن أقلع إليهم بخلاف ريحهم عطب"[٧١]

ثم يصف حال الظالمين والعاصين ، وما سيحل بهم من سوء المصير، يقول : "يا بؤس مقام الظالمين، وندامة العاصين، إذا رأوا العذاب، وتقطعت بهم الأسباب، ويقولون هل إلى مرد من سبيل، ولات حين سبيل"[٧٢]

كما تضمنت بعض رسائل التعزية والشكوى ووصف المحن والمصائب دعوة الى الزهد في الحياة ، من ذلك ما اورده ابن بسّام لأبي محمد بن عبد البر ، افتتح احدى رسائله بالاشارة الى تقلّ الدنيا من حال الى حال ، يقول: "فالدنيا تحلو لتمر، وتصفو لتكدر، وتنظم لتنثر، وتجمع فتفرق، تسقي لتشرق، فهي كالشمس تضيء

فتعشي، وكالطعام يغذي فيؤذي، فالأولى الزهد عن زخرفها وزبرجها، والترك لما يحلو من رضابها، ويخدع من سرابها، والإعراض عن وصالها، ونضرتها وجمالها، فليست تبقي على السيد ولا المسود، ولا على القريب والبعيد، ولا على الملوك والعبيد، ولا على العالم والجاهل، ولا [على] النبيه والخامل"[٧٣]

ففي هذه الرسالة ترغيب في الزهد ، وحث على الابتعاد عن الدنيا وملذاتها ومباهجها .

ويذكر لأبي الحسن علي بن محمد التهامي(ت٤١٦ه)[٧٤] من مراثيه قصيدته أولها:

حكم المنية في البريـــــة جـــــارِ ... مـــــا هذه الدنيـــــــا بدار قرارِ[٧٥]

يقول فيها:

إني وترت بصارم ذي رونقٍ ... أهددتـــــهُ لطلابـــة الأوتـــارِ

يا كوكبا ما كان أقصر عمره ... وكذاك عمر كواكب الأسحـارِ[٧٦]

ومثل هذا ما ذكره لعلي بن بسام البغدادي(ت٣٠٢ ه)[٧٧] قوله لأخيه جعفر الذي كان من أهل الجمال الفائق، يقول:

حان المنية يا أبا العبـــــــاسِ ... فدع المكاس فلات حين مكاسِ

ما بال وجهك بعد كثرة نوره ... قد سودوه بـحالك الأنفـــــــاسِ

أين الدنانير التي عودتهـــــا ... هيهات جاء الشعـــر بالإفـلاسِ

كانت تجد ثيابه ديباجـــــــة ... فاستبدلت حلـــساً من الأحـلاسِ

وكذا البناء فغير مرتفـــعٍ إذا ... كانت بليتـــــه من الآســـــاسِ[٧٨]

فابن بسّام اورد هذه الأبيات مؤمنا بأن الحكّام واصحاب الجاه والأموال وكل شي مصيره الزوال والفناء ، أيّاً كان مركزه ومكانته ، ولهذا السبب افتتحت كثير من قصائد المراثي بمطالع في الزهد والوعظ والموت الذي يعتبر المصير المشترك والحتمي لكل من على وجه الأرض.

وقد أورد ابن بسام أبيات أخرى في الزهد والوعظ وترك الدنيا ومتاعها ، لا يتسع المجال لذكرها جميعها[٧٩]

ويؤمن ابن بسّام بالقضاء والقدر، وهو الإيمان بعلم الله الأزلي، و بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة سبحانه، وأن لا مرد لما يأتِ به ، يذكر لابن عمار قوله:

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكـرُ ... ماذا يعيد عليك البث والحذرُ

وإن يكن قدر قد عاق عن وطرُ ... فلا مرد لمـا يأتي بـــه القـدرُ[٨٠]

وله أيضا :

وهل يملك المرء من أمـره ... قبيـــــلاً فينفـــــذه أم دبيـــرا

هو القدر الحتم يعمي الفتى ... وإن كان بالدهر طباً بصيرا[٨١]

وللتهامي أيضا :

تحـــــوّل الدهر أحوالي وبـــدّلني ... دارا بـدار وجيراناً بجيـــرانِ

وربّ أمـــر رمتني الحادثـات بـــه ... أرنو إليه وحالي فيه حـــــالانِ

إذا نظرت بعين الهـــزل أضحكـني ... وإن نظرت بعين الجد أبكاني

يظما الكريم فلا يسقى وقد ظفـرت ... كف اللئيم بسيحنٍ وجيحـــــانِ

تأمل القدر المحتـــــوم وارض بـهِ ... فإنمـــــا وزن الدنيـــا بميـــزانِ

فظـــــلّ يـــزداد فيهـــا كل منتقصٍ ... إلا ويهبط منها كـل رجحـــانِ[٨٢]

مما تقدّم ، نستطيع القول ان النسق الديني لدى ابن بسّام كانت ملامحه واضحة جزئيا من خلال النصوص التي اختارها من كتابات شتى ، ومن خلال نقده للسلوك الظالم، والمشين ، والجبان ، اضافة الى رغبته بتحفيز اهل الاندلس للنظر الى حالهم المزرية بعد أن شهدوا الفتن والمحن ، ودعوتهم للعودة الى الله والالتزام بتعاليم دينه سعيا للنهوض بحال الأمة وما يحدث فيها من فتن واضطرابات

إن ابن بسّام كان من القلائل الذين تمسّكوا بالقيم الدينية والأخلاقية في عصرٍ تفشّت في معاني القيم ، والابتعاد عن الدين وتعاليمه ، فحياة الأندلسيين كانت حافلة بمجالس الأنس واللهو والطبيعة وازدهارها ، جعلت منهم منشغلين عمّا يدور حولهم، وأنهم حاولوا بشتى الوسائل الابتعاد عن الصراعات والاضطرابات الحاصلة في ذلك العصر ، الا ان ابن بسّام جعل من الدين منطلقا للإصلاح ، وسعى من خلال ما ذكره من نتاج أدبي لشعراء الاندلس أن يبيّن دور الدين وقيمه في انتشال حال الأمة من الاضطراب الى السكينة ، فكان هذا الطابع كامنا في ذاته ، وحسن اختياره للأبيات والمواقف يعزز موقفه ازاء هذه الغاية ، اضافة الى أن الدين كنسق ثقافي لديه كان مهيمنا على اسلوبه في الكلام ، متحكّما بطبيعة عرضه للنصوص والأخبار.

لقد جعل ابن بسّام من نفسه داعيا ضمن قالبه الأدبي الذي اكتنف ذخيرته في هذا النسق تحديدا – النسق الديني– ، فأراد أن يرسم دعواه أدبيا ، وأن يستخلص منها لنفسه ولغيره عِبَراً ترنو في الافق ، لتحيل الأشياء من تهاديها الى ثبوتها ، ومن قبحها الى حسنها.

الهوامش :

لسان العرب ، ٦٠٣/٢ ، وينظر : معجم العين ، ٨١/٥ ، ومجمل اللغة ، ٨٦٥/١ .

ينظر : المحكم والمحيط الأعظم ، ٦ / ٢٩٣ .

أساس البلاغة ، ٢/ ٢٦٦

نحو نظرية أدبية ونقدية جديدة (نظرية الانساق المتعددة) ، ٧ .

عصر البنيوية ، ٤١١

ينظر : معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، ٢١١

ينظر : نحو نظرية أدبية ونقدية جديدة (نظرية الأنساق المتعددة) ، ٨

هو محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان ، أبو الفضل التميمي البغدادي ، (جذوة المقتبس، ٧٤) .

الذخيرة ، ٥/ ٤١١ .

المصدر نفسه .

المصدر نفسه ، ٧ / ١٤٩ .

المصدر نفسه ، ١/ ٤٩٧ .

المصدر نفسه .

ديوان ابي العتاهية ، ١٢٢

ديوان ابي نواس ، ١٧٢/٢ – الباب السابع (في الزهديات)-.

الذخيرة ، ١/ ٤٩٧ .

المصدر نفسه ، ١/ ٩٨-٩٩ .

اللَّقْعُ: العيْبُ، ورجُلٌ تِلِقَّاعةٌ ، أي: كثيرُ الكلام ، ينظر: لسان العرب ، ٨/ ٣٢٢ .

ينظر: الذخيرة ، ٩٧/١-٩٩

ينظر: التفاوت الطبقي في المجتمع الأندلسي ، د.سامية جباري

الذخيرة ، ١٦/٥ .

المصدر نفسه ، ٢/ ٥٨٨

المصدر نفسه ، ٢/ ٦٥١

المصدر نفسه ، ٨٧/٥ .

ينظر: المصدر نفسه ، ٧/ ٢٦٧ .

هو أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن عَامر البزلياني الْكَاتِب (المغرب في حلى المغرب ، ٤٤٤/١) وينظر: جذوة المقتبس ، ٤٠٨ وبغية الملتمس ، ٥٤٠ .

الذخيرة ، ٦٢٧/٢-٦٢٨.

المصدر نفسه ، ٦٢٨/٢ .

المصدر نفسه ، ٢/ ٦٣٩ .

المصدر نفسه ، ٢/ ٦٣٩ .

ينظر : دولة الاسلام في الأندلس ، ٤١٩/٢ .

هو المُتَوَكِّل ابن الأَفْطَس عمر(المتوكل) بن محمد (المُظَفَّر) ابن عبد الله بن محمد بن مسلمة أبو حفص التجيبي: آخر ملوك بني الأفطس أصحاب "بطليوس" في الأندلس (الأعلام للزركلي ، ٦٠/٥) و (ينظر : فوات الوفيات ، ١٥٥/٣)

ينظر : الذخيرة ، ٢٤٩/٣-٢٥١ ، وقد ذكر ابن بسام حوادث سقوط طليطلة أيضا ، (الذخيرة، ٧/ ١٦٤) .

المصدر نفسه، ٢٥٠/٣

المصدر نفسه ، ٢/ ٨٨٥

ينظر : المصدر نفسه ، ١٤٦/١- ١٤٧، ١/ ٥٢٣-٥٢٨، ٣/ ١٥٨، ٥/ ١١٥، ٦/ ٥٨١، ٦٣٥/٦ ، ٧/ ٣٩، ٧/ ٢٩٥ .

هذه الأبيات من قصيدة للمتنبي يمدح بها كافوراً ومطلعها:

أود من الأيام ما لا توده ... وأشكو إليها بيننا وهي جنده ، ديوانه: ٤٥٦ .

هو عبد الْعَزِيز بن خيرة أَبُو أَحْمد الْقُرْطُبِيّ الْمَعْرُوف بالمنفتل (الوافي بالوفيات، ٢٩١/١٨) وينظر: بغية الملتمس: ٥١٦ ، والمغرب ،٩٩/٢ ، ولم أعثر على تاريخ وفاته.

الذخيرة ، ٢/ ٧٦٥ .

المصدر نفسه.

جمهرة اشعار العرب ، ٣٤ .

الذخيرة ، ٤/ ٨٤٦ .

المصدر نفسه ، ٥٤٤/١ .

البيت للأعشى في ديوانه (الصبح المنير) ، ١٠٩ .

الذخيرة ، ٥٤٥/١ .

المصدر نفسه ، ٥٤٦/١.

ينظر: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، ١٩٣ .

الذخيرة ، ١/ ٤٩٢.

المصدر نفسه ، ١/ ٤٩٢-٤٩٣.

ينظر: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ،١٩٣ .

الذخيرة ، ١/ ٤٩٣

المصدر نفسه، ٤٩٣/١ ، ورسائل اخرى ايضا ، ٤٩١/١-٤٩٣ .

المصدر نفسه ، ١/ ٤٩٤ .

المصدر نفسه .

المصدر نفسه ، ٤٩٥/١

المصدر نفسه ، ٣/ ١٠٤

المصدر نفسه .

المصدر نفسه .

ازهار الرياض في اخبار عياض ، ٤/ ٢٠ .

ينظر: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، ١٩٤ .

الذخيرة ،٣/ ٢٨٦ .

المصدر نفسه ،٣/ ٢٨٦-٢٨٧ .

المصدر نفسه ،٣/ ٢٨٧ .

المصدر نفسه .

يعلل الدكتور احسان عباس هذه الظاهرة في كتابه (تاريخ الادب الاندلسي - عصر الطوائف والمرابطين-) ، ١٣٦.

الذخيرة ،٣/ ٩٣ .

ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ، ١٠٥ .

تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ، ٤/ ١٨٥٩ .

الذخيرة : ٢/ ٨٥٨ .

لم أعثر على ترجمة هذا الزاهد في كتاب الذخيرة ، ولم أجد صورة أخرى لهذا النص في كتب الادب الاندلسي الاخرى .

الذخيرة ، ٢/ ٨٥٢ .

المصدر نفسه .

المصدر نفسه ، ٢٢٥/٥ .

هو علي بن محمد بن فهد ، ابو الحسن التهامي (الوافي بالوفيات ، ٧٤/٢٢) ، وينظر: الأعلام للزركلي ، ٣٢٧/٤ وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨٢/٥ .

الذخيرة ، ٥٤٤/٨ .

المصدر نفسه .

هو علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام، أبو الحسن البغدادي، أحد الشعراء، ابن أخت ابن حمدون النديم (فوات الوفيات ،٣/ ٩٢) .

الذخيرة ، ١/ ١٤٣ .

ينظر: المصدر نفسه ، ٢/ ٨٥١ ، ٢/ ٨٦٧ ، ٢/ ٨٨٩ ، ٣/ ١٠٣ ، ٣/ ٣٢٣ ، ٣/ ٣٦٩ ، ٣/ ٤٤٢ ، ٥/ ٤٨ ، ٥/ ٧٨ ، ٥/ ٨١ ، ٥/ ٨٤ ، ٥/ ١٠٨ ، ٥/ ١٤٩ ، ٥/ ١٥٤ ، ٥/ ٢١٦ ، ٥/ ٤٥٠ ، ٦/ ٥٤٨ ، ٧/ ٢٢٢ ، ٧/ ٢٧٥ ، ٧/ ٣٠٥ .

المصدر نفسه ،٣/ ٤٨ .

المصدر نفسه ،٣/ ٤١٦ .

المصدر نفسه ، ٨/ ٥٤٧

المصادر والمراجع :

تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، إحسان عباس (ت١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م) ، ط١ ، ١٩٦٢ ، دار الثقافة، بيروت – لبنان .

أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، فايز عبد النبي فلاح القيسي ، ط١ ، ١٤٠٩ه-١٩٨٩م ، دار البشير للنشر والتوزيع –عمّان .

ازهار الرياض في اخبار عياض ، شهاب الدين ، احمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق : سعيد أحمد أعراب - محمد بن تاويت ، د.ط ، ١٣٥٨ه – ١٩٣٩م ، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ، ودولة الإمارات المتحدة – الرباط .

أساس البلاغة ، ابو القاسم ، جار الله محمود بن عمر بن احمد الزمخشري (ت ٥٣٨ه)، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، ط١ ، ١٤١٩ه – م١٩٩٨ ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

الأعلام ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزِرِكْلِيّ (ت١٣٩٦ه) ، ط١٥ ، ٢٠٠٢م ، دار العلم للملايين – بيروت .

بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة ، أبو جعفر الضبي (ت٥٩٩هـ) ، تحقيق : إبراهيم الإبياري ، ط٢ ، ١٤١٠ - ١٩٨٩م ، دار الكاتب العربي – القاهرة .

تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ، زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقي (ت٨٠٦هـ) وأبو نصر تاج الدين عبد الوهّاب بن

علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٧١ه) ، ومحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) ، استخراج : أبو عبد اللَّه مَحمُود بن مُحَمّد الحَدّاد ، ط١ ، ١٤٠٨ه – ١٩٨٧م ، دار العاصمة للنشر ، الرياض .

جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحَمِيدي أبو عبد الله بن أبي نصر (ت٤٨٨هـ) ، تحقيق : إبراهيم الأبياري، ط٢ ، ١٩٧٣م ، دار الكتاب المصري ، القاهرة .

جمهرة اشعار العرب ، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (ت١٧٠هـ) ، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي ، د.ط ، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م ، النهضة للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر .

دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري (ت١٤٠٦هـ) ، محمد عبد الله عنان ، ط٤ ، ١٤١٧ه- ١٩٩٧م ، مكتبة الخانجي .

ديوان ابي العتاهية ، اسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان مولى عنزة ، ابو اسحاق (ت٢١٠ه) ، تحقيق : كرم البستاني ، د.ط ، ١٤٠٦ه-١٩٨٦م ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت .

ديوان ابي نواس ، الحسن بن هانئ الحكمي(ت١٩٩ه) ، برواية : حمزة الأصفهانى، وأبى بكر الصولى ، تحقيق : إيفالد فاغنر وغريغور شولر ، د.ط ، ١٣٩٢ه – ١٩٧٢م ، النشرات الإسلامية - فرانز شتاينر .

الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) ، تحقيق : احسان عباس ، ط٢ ، ١٩٩٧م ، دار الثقافة ، بيروت .

شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي أبو الفلاح (ت١٠٨٩ه) ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، خرّج احاديثه : عبد القادر الأرناؤوط ، ط١ ، ١٤٠٦ه-١٩٨٦م ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت .

الصبح المنير في شعر أبي بصير ميمون بن قيس بن جندل الأعشى، والأعشيين الآخرين، قام بجمعه المستشرق رودولف جاير ، ط٢ ، ١٩٩٢م ، مكتبة ابن قتيبة ، الكويت .

عصر البنيوية ، إديث كريزويل ، ترجمة : جابر عصفور ، ط١ ، ١٩٩٣ ، دار سعاد الصباح ، الكويت .

فوات الوفيات ، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (ت ٧٦٤هـ) ، تحقيق : إحسان عباس، ط١ ، ج١ في ١٩٧٣م ، وج٢، ٣، ٤ في ١٩٧٤م ، دار صادر ، بيروت .

لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت٧١١هـ) ، ط٣ ، ١٤١٤ه ، دار صادر ، بيروت.

مجمل اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت٣٩٥ه) ، دراسة وتحقيق : زهير عبد المحسن سلطان ، ط٢ ، ١٤٠٦ه-١٩٨٦م ، مؤسسة الرسالة، بيروت .

المحكم والمحيط الأعظم ، أبو الحسن علي بن إسماعيل ، المعروف بابن سِيدَه المُرسيّ (ت٤٥٨ه) ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، ط١ ، ١٤٢١ه-٢٠٠٠م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

معجم العين ، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمن (ت١٧٠ه) ، مهدي المخزومي ، وابراهيم السامرائي ، د.ط ، د.ت ، دار ومكتبة الهلال .

معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، سعيد علوش ، ط١ ، ١٩٨٥م ، دار الكتاب اللبناني- بيروت ، سوشبريس-الدار البيضاء .

المغرب في حلى المغرب ، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت٦٨٥هـ) ، تحقيق : شوقي ضيف ، ط٣ ، ١٩٥٥م ، دار المعارف ، القاهرة .

المجلات والدوريات :

نحو نظرية أدبية ونقدية جديدة (نظرية الانساق المتعددة) ، جميل حمداوي ، صحيفة المثقف ، العدد: ٣٨٢٤ ، المصادف: الخميس :٢٣/ ٢٠١٧/٠٢م .

التفاوت الطبقي في المجتمع الأندلسي. د. سامية جباري ، موجزات ويب ، ١٤ يونيو ٢٠١٤ .